تقارير

📖 أحسن ما قرأت : كل ما قرأت

أحسن ما قرأت : كل ما قرأت

عبد التواب يوسف

لا أظن أن يوماً يمر بي، إلا وأقرأ فيه كتاباً للأطفال، فضلاً عن القراءة العادية، كإنسان يسعى للتعليم المستمر والتثقيف الذاتي، وهو منهج أسير عليه عبر سنوات تجاوزت ثلث قرن .. وقراءتي لكتب الأطفال ليست سريعة متعجلة، بل حتى لو كان الكتاب مصوراً، أي تمتزج فيه الكلمات بالرسوم، بلا انفصال أو انفصال، فإنني أتوقف بعد القراءة طويلاً، مقلباً الكتاب، وصفحاته متمعناً منه، أريد أن اخترقه، ولا أكتفي منه فقط بالفكرة الأساسية، التى قد تكون واضحة، بل أمعن فى التعمق فيه والتساؤل :

ما هي "الرسالة" التى يبعث بها المؤلف إلينا أطفالاً وكباراً من خلال كتابه هذا ؟!

وأتساءل : هل عالج فكرته هذه بشكل سوي وسليم وجذاب وممتع؟ هل كان واضح الهدف، واستطاع أن يصل إلى عقلي ووجداني بما كتبه ؟! ثم، ماذا عن الشخصيات الأساسية، والشخصية المحورية - البطل - وهل رسمها أو رسمه وجسده تماماً ؟!

وأتوقف عند الأحداث الكبيرة، والحدث الأساسي، هل برره وجعله معقولاً مقبولاً ؟ ثم : هل تغيرت شخصياً بعد قراءة الكتاب، عما كنت قبله، تغيراً ما، حتى ولو كان أقل ألوانه ؟ ! ثم، هل أنا مع الكاتب فى وجهة نظره، أم اختلف معه، واحترامه ؟ هل لو إنني الكاتب كنت أتناول القضية على نفس الصورة، أم تراني أقلبها رأساً على عقب ؟ !

إن التفكير فيما قرأت كثيراً ما يستغرق من الوقت أكثر من ذلك الذي استنفدته القراءة، من أجل أن تصبح مجدية، وهذا يحدث مع كل كتاب، صغر حجمه أم كبر، وما أكثر الكتب قليلة الصفحات التى أخذت منى ما هو أضخم من حجمها بمراحل، إذ إن عملية الهضم تأخذ منا ما يزيد بمراحل على عملية الأكل.

هذا هو منهجي فى القراءة، وقد دربت نفسي على أن يكون لي منهج إزاء كل شيء أفعله فى حياتى، وأظننى تجاوزت فى

قراءاتي عبر العمر ما تناولته من طعام وشراب للمعدة، وكان عقلي ووجداني أكثر جوعاً وحاجة للمعرفة والمشاعر منها .. لذلك أرى من الصعوبة بمكان أن أختار وسط هذا الطوفان، وتلك الأمواج، المتوالية المتتالية، يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، ولست أقول هذا فخراً وزهواً بعدد ما قرأت من كتب، لأني أذكر سؤال الإمبراطور لمستشاره عن أمين مكتبة القصر وإن كان مثقفاً أم لا .. وكان رد المستشار ك إن أمين المكتبة لا يكف قط عن القراءة، وأنه لا يدرى إن كان لديه بعد ذلك وقت لكي يتثقف ! وليس أصعب، بل لعله من المستحيل، أن نجيب تحديداً عن سؤال كهذا، أشبه بأسئلة الامتحانات لأطفالنا، وهى تبغي تعجيزهم، وكثيراً ما نختبر الذاكرة، ونحن فى المرحلة من العمر نتمتع - كما يقول المازنى - بذاكرة مثل الغربال واسعة الثقوب .. بل هي ذاكرة عبارة عن ثقوب تنتظمها خيوط رقيقة، لا تبقى فى غربالنا شيئاً .. لكن، ما العمل، ونحن نلوم الصغار إذا تعثروا فى اختباراتهم ؟ ولست أنسى الصغيرة التى حلت مسألة واحدة فى امتحان الحساب، وغادرت مكانها، وسألناها : لماذا لم تواصل ؟ كان ردها فى ثقة : معلمتى تعلم يقيناً إني قادرة على أن أحل كل هذه الأسئلة البسيطة الساذجة !

وعندما أقذف بنفسي وسط بحار الكتب تتوالى أسماء عزيزة وغالية : د. طه حسين، العقاد، المازنى، الحكيم، الزيات، أحمد أمين، زكى نجيب، محمود، ..... ، ثم هناك شكسبير وإيسن وشو وبلزاك وستيفنسون، ومارك توين، وديستوفسكى، وجوته، ولامرتين، و.... وهناك كتب مست منا وتراً من الأوتار الحساسة، ذات مرحلة من العمر، وكانت انعطافه مما يجعل المرء عاجزاً عن الأختيار .. لكن، إذا لم أجب عن السؤال إجابة محددة، فسوف أنال "صفراً"، ولست أرتضيه لنفسي، وقد يحسب لي القارئ / المصحح بعض الدرجات إذا أنا حاولت أن أورد الكثير، لعله يجد نقطة هنا و نقطة هناك، قد استحق عليها درجة .. ومن مجموع هذه الدرجات قد أحصل على واحد وخمسين بالمائة، مما يتيح لي فرصة اجتياز الإختبار الرهيب .. وربما كان كل هذا الخروج فى الإجابة عن السؤال وراء درجة هابطة .. وقد غصت فى تاريخي القرائى، أنا الذى أتيحت له فرصة نادرة فى إذاعة البرنامج العام لعرض كتاب قرأته، أسبوعياً، وعلى مدى يزيد على خمسة عشر عاماً، لكى أضع يدي علي كتاب واحد - غير الكتب السماوية - أراه أندر ما قرأت فى عمري، ولسوف يكون هو "خيوط العنكبوت" للكاتب الذى الرائع والرائد : إبراهيم عبد القادر المازنى، لأنه الكتاب الذى أخذني بيدي إلى دنيا الأدب فى سن مبكرة، وقبله كانت هناك كتب للصغار لم تتغلغل بداخلي ولم تحتلني بالكامل، كان هذا الكتاب هو النقلة الضخمة فى قراءاتي وما سبقه على الطريق كانت روايات بوليسية مثيرة، وتافهة، لا تترك أثراً أو بصمة .. إلى أن وقع هذا الكتاب مصادفة فى يدي، لكى يهزني ويرجني، ولكي يكون

الباب الذهبي، والملكي، إلى عالم كتبه بأسرها، ونصحني المازني فى لقائي الوحيد معه أن أغادره إلى العقاد وطه حسين والحكيم و ... واستجبت، لكنه بقى فى الذاكرة ذلك الكتاب، بنسخته القديمة المهلهلة المتهرئة، وصفحاته تنساب بين أصابعي، وأنا مفتوح العينين، والقلب والنفس، والدهشة تعتريني، الكلمات تنسكب إلى داخلي، كأنها طاقات نور وعطور وزهور، وتملأ الحياة من حولي بكل ما هو رائع، وبديع، وجميل .. وعندما حاول ميخائيل نعيمة فى كتابه "سبعون" أن يحدد لنا - فى شرخ الشباب- أهداف الحياة، لخصها فى كلمات خمس : المال، السلطة، الشهرة، الجنس، الخلود، توقفت طويلاً عند كل هدف منها، ورأيت أن "الهدف : القراءة" - معرفة ووجداناً، قد يتجاوز أهدافه الخمسة، فارتضيها لنفسي بديلاً عن كل متع الدنيا، ولست أنسى صورة رسام كاريكاتيري لشاب فى ليلة الزفاف، وعروسه تجلس على طرف الفراش، بينما راح هو يلتهم صفحات كتاب، وهناك العشاء فى جانب من الرسم ينتظره .. وقد رأينا أنفسنا - صلاح عبد الصبور، عز الدين إسماعيل، عبد الغفار مكاوي، فاروق خورشيد وبقية رفاق العمر.

- ذلك الشاب المسكين .. وفى مرحلتنا الآن نرى أننا كنا على صواب، ولم نخطىء كثيراً، حين وجدنا ذلك فى الكتاب، فالله حين أراد أن يهدي البشرية أرسل "كتباً".

ترانا - أنيس منصور ورجاء النقاش و.. - ممن ضيع فى الأوهام عمره؟ .. هل ينطبق علينا ما قاله شوقي متعرضاً لقارىء كتب نهم "إذ نفقت ومات الحمار ....." ؟! ..... أم أننا لم نكن نختار ؟! ...

من المؤكد أنكلاً منا سأل نفسه ...

- ترى كيف كان إنسان قبل "اختراع" الكتاب؟

- وكيف كان يمكن أن تكون حياتنا بدونه؟

إنه قدرنا .. إنه "خيوط العنكبوت" التى التفت من حولنا نحن ديدان الكتب والذباب الذي عف عليها، ولم ولن يعف عنها .. لقد سكبت بداخلنا معرفة وعلماً، وسرعان ما نسيناها، وهزت منا المشاعر والوجدان، وتجاوزنا لحظاتها، وغزت منا الرؤوس بالأفكار، ونفضناها عنا ليكون لنا فكرنا الخاص بنا، وظللنا نحبها، نعشقها وأن سلبتنا صحتنا، وحياتنا وعمرنا ونور أعيننا .. ونعترف فيما بيننا وبين أنفسنا أنها كانت ومازالت وستظل صنو الحياة، إن لم تكن هى الحياة نفسها : قراءة لها وكتابة، وتأليفاً .. وإن كنا نسمع من البعض أنهم أنهوا علاقاتهم بالكتاب تماماً، بعد أن غادروا مرحلة الدراسة، وما عادت لهم صلة به على الإطلاق .. ويتساءل أمثالنا : كيف يمكن لهؤلاء أن يعيشوا ؟! .. نحن نقرأ فى ساعتين سيرة لعبقري عاش سبعين عاماً وأكثر، وكيف يحرم هؤلاء من مثل هذه التجربة الإنسانية البالغة الجمال والثراء والروعة ؟!

ويذهلنا أن نسمع من البعض : لا وقت عندي للقراءة .. ولا شك أننا نهم دائماً بطرح سؤال عليهم : وفيم ينقضي الوقت ؟! .. وما جدواه بغير الكتب ؟! إن القارىء فى واقع

الأمر يعيش ألف حياة وحياة بينما لا يعيش القارىء إلا حياته وحدها .. أي متعة، أي سعادة، أى ثراء يفقد ؟

حين أقامة د. سهير القلماوى للكتاب معرضاً فى بلادنا كان ذلك عيداً، وعندما قام مهرجان القراءة للجميع، أضيف إلى أيامنا يوم جليل وجميل، نحن أحفاد الجاحظ أعظم القراء فى التاريخ الإنسانية، ونحن أمة "اقرأ" التى جاءها أمر السماء فى أول أية كريمة نزلت من القرآن الكريم، نعرف معنى أن نستجيب لفريضة جليلة الشأن، عظيمة القدر، لذلك كنا فى طفولتنا المبكرة يسأل الواحد منا رفيقه : ماذا قرأت ؟ وفيم تقرأ؟! .. لقد عرفنا رفقة الكتاب وآثرناه على الطعام والشراب .. ومازلنا . اللهم أدم علينا نعمة لمس الورق، وتقليبه، وأعنّا على أن تجري عيوننا الكليلة على السطور تلتهمها فى حب وولع، ومن طاقات العيون تنسكب المعرفة والعلم والحياة إلى داخلنا، ليضيء - يتألق، وقد قالها المازنى قبل سنين طوال : نحن مثل عربات "الرش" ما من سبيل لكي نؤدى دورنا ورسالتنا اللهم إلا إذا امتلأنا، وبعدها نرش ونروي .

اللهم أدمها هواية ومنحة ومهنة : القراءة.